في الأدب الغربي

بين بين

للدكتور طه حسين

الأصل في الكلام أنه وسيلة تتوسل بها الى الاعراب عما تريد ان يفهمه عنك غيرك ، فهماً واضحاً جلياً لالبس فيه ولا غموض. والكلام كله يشترك في هذا الاصل أو قل كان يشترك في هذا الاصل سواء منه ما كان شعراً وما كان نثراً ، وسواء منه ما تحدث الى العقل وما تحدث الى القلب والشعور . فاذا خرج الكلام عن أصل البيان والتبيين هذا فكان فيه غموض أو التواء فمصدر ذلك قصور في المتكلم أو الكاتب أو قصور في السامع أو القارىء ، فمهما يكن من ذلك فلم يحسن الاعراب عما يريد ، أو عجز هذا فلم يحسن الفهم لما اتى اليه . وقد يكون الغموض مقصوداً والالتواء متعمداً ، لأن للكاتب أو الشاعر أو المتكلم غرضاً يدفعه إلى أن يتكلف الغموض ويتعمد الالتواء ولكن هذا الكلام الغامض الملتوى واجد على كل حال من يقرأه أو يسمعه فيفهمه فهماً صحيحاً مستقيماً

هذا هو الاصل في الكلام ولكن يظهر أن الترف الفني الذي ترقى بنا الحضارة اليه ، وتتنقل بنا في درجاته المختلفة يأبى أن يقر الاشياء في أصولها أو يدعها ميسرة لما خلقت له . فكما أن الأصل في الطعام والشراب الغذاء والرى ، ولكن الحضارة والترف قد خرجا بهما عن هذا الأصل الى مايتجاوز الغذاء والرى الى غيرهما من اللذات التي يجدها الطاعمون والشاربون فقد خرج الترف الفني في هذه الايام بالكلام عن أصله المألوف الى شيء آخر غير البيان والتبيين ، ونشأت طائفة من الكتاب والشعراء لاتكتب النثر ولا تقرض الشعر لتقول شيئاً واضحاً جلياً أو لتقول شيئاً ينتهي بعد الجهد والعناء الى الوضوح والجلاء . وانما تكتب وتنظم لتثير في نفسك ألواناً من المعاني وضروباً من الخواطر ، ولتهيج في قلبك اشكالا من العواطف وفنونا من الشعور ، تحسها فتلذ لها وتألم ، وتبتهج لها وتضيق بها . وتفهمها حيناً وتعجز عن فهمها أحياناً ، وتذهب مذاهب متعددة غريبة متباينة في فهم هذا الكلام الذي يلقى اليك وتأويله وتخريجه فتقر ماتنتهي اليه ثم يبدو لك فتعدل عنه ، ثم تقرأ هذا الكلام مرة أخرى فاذا أنت تذهب في فهمه وتأويله وتخريجه مذاهب لم تكن قد ذهبتها من قبل ، ثم تتحدث الى من قرأ هذا الكلام نفسه فاذا هو يخالفك في الفهم كل الخلاف أو يخالفك في بعضه ويوافقك في بعضه الآخر . ثم تتحدثان الى ثالث قد قرأ هذا الكلام فاذا له فيه رأى لم تراياه ولم يخطر لكما على بال ولعلكم ان سألتم الكاتب أو الشاعر الذي القى اليكم وإلى الناس هذا الكلام عما أراد به حين كتبه أو نظمه لم تجدوا منه جوابا مقنعاً ولا رداً مريحا . أو وجدتم أجوبة مختلفة وردوداً متباينة ، لأنه هو لايعرف بالضبط ماذا أراد حين كتب أو نظم أو كان يعرفه أثناء الكتابة والنظم ثم ذهب عنه بعد ذلك ، أو كان يعرفه فلما أتم الكتابة والنظم وترك ما كتب ونظم حينا عاد اليه يقرأه فاذا هو يفهم منه غير ماأراد ويتبين منه غير ما كان قد قصد اليه

وقد يخطر لك أني اقصد بهذا النحو من الكلام الى شيء من العبث أو الدعابة ، فذد عن نفسك هذا الخاطر فلست بصاحب عبث ولا دعابة . وإنما أنا صاحب جد كل الجد وأنا أكتب هذا الكلام بعد أن فرغت من قراءة قصة لذيذة قيمة ممتعة للكاتب الفرنسي جورودو . صاغها في صيغة القصص التمثيلي ووضع لها العنوان الذي وضعته أنا لهذا الفصل ، ونشرها في عددين من مجلة باريس

وقد قلت إن هذه القصة لذيذة قيمة ممتعة وانا اريد ما

قول، ولعلي مقصر حين اكتفي بهذه الاوصاف وحسبك أني قرأتها ثلاث مرات وسأقرؤها الرابعة ان أذن بنا لك الوقت وسمحت به الظروف . وقد وجدت في كل قراءة لذة ومتاعا وأنا واثق بأني سأجد في القراءة الرابعة لذة ومتاعا . ولكني على ذلك كله لم أفهم ماأراد الكاتب أو قل فهمت أشياء مختلفة وأغراضا متباينة، ماأظن أن الكاتب قد أراد اليها أو فكر فيها . وقد أسأت الظن بنفسي فاقرأت هذه القصة قوما آخرين وجدوا فيها لذات لم أجدها ومتاعاً لم أشعر به . ولكنهم كانوا مثلي عاجزين عن ان يفهموا بالدقة او بالتقريب ماأراد اليه الكاتب حين كتب قصته هذه البديعة الغريبة . ثم انتهي بنا الامر الى ان تفقنا على ان الكاتب لعله لم يرد شيئاً اكثر من أن يثير في نفوسنا وقلوبنا هذه الخواطر والعواطف وهذه الاهواء والميول . وعلى ان الكاتب لعله أراد أن يذهب بالكلام مذهب الموسيقيين بالموسيقى، فلا يقصد إلا الى أن يثير في نفسك ضروبا من العواطف والاهواء حول فكرة خطرت له وأثرت فيه، فصورها كما استطاع في هذه الالحان التي قد تطابق ما في نفسه وقد تقصر عنه وقد تتجاوزه وتربى عليه . ولكنها على كل حال قلما تنقل الى نفسك صورة صحيحة مطابقة لما كان في نفسه، وقلما تثير في النفوس المختلفة عواطف واهواء مؤتلفة أو متقاربة تقاربا شديداً . انما قصاراها ان تدفع بك في عالم من الخيال لا حد له . فأنت تتصور فيه ما تشاء . وانت تحس فيه ضروبا متباينة من الاحساس . وقد تسمع اللحن الموسيقي الآن فيثير في نفسك لونا من الخواطر وتسمعه بعد ذلك فيثير في نفسك لونا آخر . وكذلك يذهب أصحاب الكلام بالكلام حتي يجعلوه فنا من النغم وضربا من الموسيقى، وحتى يستطيعوا ان يلقوه اليك فاذا انت لا تفهم منه شيئا دقيقا جليا كما تعودت ان تفهم من الكلام . ولكنك على ذلك لا ترغب عنه ولا تنفر منه بل تؤثره ولا تعدل به شيئا .

في هذه القصة خداع غريب خطر لأنه يخيل اليك انك تفهم ما تقرأ على وجه من وجوه الفهم فتمضي في القراءة متابعا فهمك هذا مطمئنا اليه، ولكنك لا تلبث ان تضل الطريق . واذا انت في واد غير ذلك الوادي الذي كنت تمضي فيه . ومايزال كذلك ينتقل من واد الى واد ويثب بك من مذهب في الفهم الى مذهب آخر حتى تنتهي القصة . واذا انت تسأل نفسك ماذا فهمت انت منها وماذا اراد الكاتب بها اليه .

ولا بد لي من ان ألخص لك المقدار الذي يستوي الناس جميعاً في فهمه من هذه القصة حين يقرأونها وهو هذه الصورة الظاهرة التي يقسمها الكاتب الى مناظر وفصول . ولكني احب ان تفهم ان هذا التلخيص لا يعطي شيئاً ولا يصور ما اراد الكاتب . وقد قرأت لجماعة من النقاد فما ارى انهم فطنوا لما قصد اليه في دقة ووضوح .

كل شيء في القصة مبهم قد تعمد الكاتب ابهامه، حتى الاماكن التي تقع فيها حوادث القصة، والاوقات التي اختارها الكاتب لوقوع هذه الحوادث . فأكثر ما يقصه عليك الكاتب يجري في مكان غير محدود ليس هو داخل المدينة وليس هو شديد البعد منها . وكأنه في طرف من اطرافها حيث تتصل عمارات المدن بالفضاء الواسع الطلق . وهو في غابة أو في شيء يشبه الغابة، تتبين فيه الاشجار ولكنك لا تضيق بها ولا تحس كثافتها والتفافها . والمكان واسع قد كسا أرضه العشب وانتثر فيه زهر كثير مختلف . ولا تقع حادثة من حوادث القصة في أول النهار أو في وسطه حين تستطيع العين ان تحيط بالاشياء وتحقق النظر فيها وحين تستطيع النفس ان تتابع العين فتفكر في شيء بين محدود . وانما تقع الحوادث في الاصيل حين يختلط آخر النهار باول الليل، وحين يضطرب على الاشياء رداء رقيق جدا من الضوء، وحين تتفرق النفس كأنها تريد ان تتابع الشمس في مسراها من وراء الظلمة الكثيفة المقبلة .

واذا اختار الكاتب هذا المكان المبهم، وهذا الوقت المبهم لم يكن من العسير عليه ان يختار اشخاصا ان ظهرت صورهم المادية ظهورا واضحا في بعض الاحيان، فان صورهم النفسية وما يصدر عنها من الاحاديث والخواطر مبهمة شديدة الابهام ملائمة أشد الملاءمة لما يحيط بها من زمان ومكان . ولعل احسن مظهر لبراعة الكاتب انما هو انشاء هذه البيئة الغامضة الواضحة المبهمة الجلية التي هي بين بين .

موضوع القصة نفسه يقتضى هذا الموقف المتوسط بين الوضوح والغموض، فنحن فى مدينة صغيرة من مدن فرنسا كانت هادئة مطمئنة تجرى حياة اهلها فى اضطراد لا تنوء فيه كأنه السهل المنبسط. ثم يضطرب امرها فجأة وتحدث فيها حوادث غير مألوفة كأن شيطانا ماكرا قد اشرف على امورها فقلبها رأسا على عقب. تعودت ان تجيل بين اهلها فى كل عام طائفة من اوراق «النصيب». فاذا جاء موعد القرعة فقد تعودت المدينة أن تخرج القرعة لاغنى اهلها إلا فى هذه السنة فقد خرجت لرجل فقير. تعودت ان تؤدى عملية الاحصاء من حين الى حين كما تؤديها غيرها من المدن. فاذا سئلت الاسر عن عددها ردت باجوبة تلائم العرف والقانون الا فى هذا العام، فالعمدة يستحى ان يقدم الى المركز أوراق الاحصاء لأن الناس قد احصوا انفسهم، وكلابهم، وماشيتهم. ولأن الرجال لم يضعوا زوجاتهم فى اجوبة الاحصاء، وانما وضعوا خليلاتهم. تعودوا ان ينهر الرجل صبيه فلا يثور الصبى، وان يزجر كلبه فلا يثور الكلب، أما فى هذا العام فالصبيان ثائرون بآبائهم وأمهاتهم، والكلاب ثائرة باصحابها وسادتها. وعلى هذا النحو اضطرب فى المدينة كل شىء. ومصدر الاضطراب فيما يظهر ان اشاعة ملأت المدينة بأن شبحا يظهر لبعض أهلها اذا تولى النهار واقبل الليل. وقد صدق الناس هذه الاشاعة واطمأنوا اليها فكلهم يلتمس الشبح وكلهم يراه، وكلهم يخافه، ويحتاط للقائه. وانتهى امر هذا الاضطراب الى باريس فأرسلت الحكومة المركزية مفتشا الى هذه المدينة يبحث ويستقصى، وأمرته بان يحسم الداء اذا انتهى الى أصله. وفكرة الحكومة أن هذا عارض من الضعف العقلى ومن الشعوذة قد ألم بهذه المدينة، فيجب ان يرد عنها وأن يبسط عليها سلطان العلم والعقل. ويقبل هذا المفتش ممتلئا بهذه الفكرة فلا يكاد يتحدث الى العمدة والصيدلى ومراقب المكاييل والموازين حتى يروعه تصديق المدينة لهذه الخرافات، وحتى يشتد عزمه على ان يشمر فى الحرب لهذا السخف حتى يقضى عليه. وهو ينكر وجود الاشباح والارواح، وهو يتحدى الاشباح والارواح ويطلب اليها أن تقلق طائرا ولو يسيرا عن غصن من هذه الاغصان وهو يحصى ثلاثة فلا يتم الاحصاء حتى تسقط قلنسوته عن رأسه! فيقول: ما أشد الريح! ويجيبه أصحابه: ليس فى الجو أثر للنسيم!

وهو يعود الى التحدى فى لفظ غليظ بشع ويطلب الى الارواح والاشباح أن تمسه بأذى ولو ضئيل. ويحصى ثلاثة فلا يكاد يفرغ من الاحصاء حتى تزل قدمه به فيهوى! فاذا نهض قال ما أشد الرطوبة! فيجيبه أصحابه، ان عهدنا بالمطر لبعيد! وبهذا يتحقق الخلاف بين ممثل الحكومة المركزية وأهل المدينة. هو صاحب علم وعقل وهم أصحاب خيال وإيمان بالخرافات.

ولكن علم المفتش أولى وعقله محدود. فهو يؤمن بما فى الكتب ويسلم به مقلدا فيه وهو يرى الايمان به والتعصب له سياسة تلائم الديمقراطية وتوافق نظم السياسة الحديثة. وسذاجة اصحابه الذين يحاورهم ظريفة طلقة ليس فيها غلظ ولا ضيق، وانما هى سذاجة ذات أجنحة تسمو بأصحابها حتى تتجاوز بهم حدود المألوف المعقول وكأنها قد اتخذت أجنحتها من الخيال وأصبحت شعرا كلها، فالحوار اذا انما هو بين الحقائق الواقعة المقيدة التى لم تبرأ من الجمود ولم تسلم من القصور، وبين الخيال المطلق الحر الذى أخذ بحظ عظيم من الرقى والصفاء والتهذيب. الحوار اذا بين الحياة اليومية المألوفة يمثلها شخص المفتش وبين الشعر يمثله هؤلاء الناس. بل يمثله معهم أكثر أهل المدينة وتمثله معهم بنوع خاص ايزابيل هذه الفتاة التى تقوم على تعليم البنات مكان المعلمة المريضة والتى تذهب فى تعليم الفتيات مذهبا غريبا ملائما كل الملاءمة للطبيعة الحرة والشعر الطلق. فهى لا تضطرهن الى المدرسة وإنما تتخذ من الغابات والحقول مدرسة تلقى عليهن فيها علما غريبا يضيق به المفتش الذى يمثل حياة كل يوم. وهى تلقى اليهن أسماء غريبة تدل بها على ألوان العلم فى الفلك والطبيعة والنبات والحيوان وهى لا تتحرج فى أن تحملهن على أن يتشكلن بأشكال الحيوانات المختلفة ويتسمين بأسمائها ويسرن سيرتها كل تعليمها يمتاز بأنه شعر، ويقوم على تحبيب الطبيعة الى التلاميذ. ولا يكاد المفتش يرى هذا ويتبينه حتى ينفر منه ويثور به ويرى أنه أصل هذا السخف الذى سيطر على المدينة ونشر فيها الفساد والاضطراب. فيعزل الفتاة إيزابيل من منصب التعليم، ويأمر أن يجرى التعليم فى المدرسة على مايجرى عليه فى المدارس الاخرى فى أضيق حدود التقاليد. وقد أنبىء بان مصدر هذه الاشاعة التى اضطربت لها المدينة انما هو هذه الفتاة المعلمة، فهى التى ترى الشبح وتناجيه اذا كان المساء! وقد ثبت له ذلك. فأرصد للفتاة وطائفها ومعه نفر مسلحون حتى اذا كان المساء أقبلت الفتاة وأقبل الطائف فتحدثت اليه وتحدث اليها. وها فى حديثهما واذا نار تطلق فيهوى

الطائف الى الارض كما يهوى القتيل . ويظهر المفتش وأصحابه وهم لايشكون فى أن هذا الطائف ليس إلا شابا أراد أن يغوى الفتاة فاتخذ صورة الطائف وشكل الخيال . ويحنو بعضهم على القتيل فلا يرى جثة وينظر القوم فاذا الطائف يرتفع فى الجو شيئاً فشيئاً حتى يسترد صورته الاولى ثم يقول : الى غد ياإيزابيل! الى غد فى غرفتك اذا كانت الساعة السادسة !

فاذا كان الغد أقبلت الفتاة الى غرفتها قرب الموعد المضروب وأقبل مراقب المكاييل والموازين فأخذ يتحدث اليها حديثا فيه حب ، فتريد أن تصرفه عن نفسها فيأبى ويعرض عليها الزواج ، وهما فى الحديث وإذا الطائف قد أقبل وطلب اليه أن ينصرف ويدعه مع الفتاة . ولكن الرجل يأبى ويلح فى الاباء ويكون بينه وبين الطائف حوار عنيف دقيق أيهما يستأثر بالفتاة ، والفتاة مترددة بين هذا الرجل الذى يمثل الحياة وهذا الطائف الذى يمثل الموت ولكن ميلها إلى الحياة ينتصر آخر الامر فينصرف الطائف مهزوما وتهوى الفتاة فى غشية كأنها الموت . ويقبل المفتش والعمدة والصيدلى والتلميذات وبعض أهل المدينة وكلهم يريدان يستنقذ الفتاة من هذا الاغماء . وكلهم يقترح لذلك دواء وطبا ولكن الصيدلى يتقدم اليهم جميعاً فى أن ينسوا الفتاة وينصرفوا الى انفسهم . ويستأنف كل منهم حياته فى هذه الغرفة كما كان بدءا اعنى فهؤلاء يلعبون الورق وهؤلاء الفتيات يتحدثن فيما بينهن حديثا عاديا ، وهاتان الفتاتان تتحدثان فى الأزياء ، وهذا المفتش ينطق من حين الى حين بألفاظ تمس العلم والتعليم والديمقراطية وقد استحالت الغرفة صورة مصغرة للمدينة . واذا الفتاة المغمى عليها تفيق شيئاً فشيئاً حتى تشترك فى الحديث عن الازياء ويأتى من يخبر بأن الامور قد استقامت فخرجت قرعة النصيب للاغنياء دون الفقراء ، ويعلن الصيدلى فى الناظ تذكر بقصة فوست ان قد انتهت هذه الحال التى كانت بين بين!

هذه صورة غليظة جداً لهذه القصة لادقة فيها ولا تحديد ولا الماما بشىء مما فيها من مواطن الشعر ومظاهر الجمال الفنى الرائع . ولا الماما فيها أيضاً بهذه المواقف الكثيرة التى يعرض فيها الكاتب للحياة اليومية على اختلاف فروعها بالنقد اللاذع المر ولكنك تستطيع أن تسأل نفسك كما سألت نفسى وكما سأل غيرى من القراء نفسه حين قرأ هذه القصة ، ماذا اراد الكاتب أن يصور فيها ؟ أتراه اكتفى بنقد ما نقد من الوان الحياة الفرنسية ولم يرد غير ذلك! الا فان هذا النقد عارض فى القصة يكفى أن تنظر فيه لتعلم ان الكاتب لم يتخذه غرضاً من اغراضه الاولى اتراه رمز بهذا الطائف الى شىء مما يعرض للناس فى حياتهم وجعل الفتاة رمزاً للناس جميعاً او لطائفة من الناس ؟ ولكن ماعسى ان يكون هذا الشىء الذى اتخذ الطائف رمزاً له اهو الحب ؟ اهو الموت ؟ اهو الأمل ؟ اهو المثل الاعلى ؟ اهو شىء غير هذا كله ؟ اتراه إنما اراد ان يصور حالا من احوال الناس تعرض لهم فى طور من اطوار حياتهم حين يكونون بين النوم واليقظة ، او حين يكونون بين الصبا والشباب وبين الاكتهال واكتمل السن . اتراه اراد ان يصور لنا حياة فتاة مريضة بنوع من انواع الامراض العصبية تتأثر بالوهم وتتبعه حتى تمضى فى اثره الى امد بعيد ثم لاترد الى الحياة الواقعة إلا فى هدوء ورفق وإلا بأن تحيط بها الحياة الواقعة احاطة متصلة لاتكلف فيها ولا جهد كل ذلك ممكن ، ولعل شيئا غير ذلك كله ممكن ايضا . ولعل الكاتب (وقد هممت ان املى الشاعر) لم يرد كما قلت إلا ان يخلق حولك هذه البيئة الشعرية التى تطلقك من قيود الحياة الواقعة وتسلمك الى الخيال يمضى بك حيث يشاء ساعة من نهار او ساعة من ليل . وقد ذهب الشعراء الى هذ النحو من الفن منذ عهد غير قصير ، فمنهم من جعل الشعر موسيقى تلذ السمع اولا ، وتثير فى النفس لذة الغم الموسيقى بعد ذلك واعرض عن المعانى اعراضا شديدا او هينا . ومنهم من اعرض عن هذه الموسيقى الظاهرة التى يتأثر بها السمع قبل كل شىء واتخذ الشعر مفتاحا يفتح لك به ابواب اللانهاية كما يقول الشعراء ووسيلة يخلق لك بها هذه البيئة الفنية العليا التى ترتفع بها وقتا ما عن الحياة والاحياء

وأخذ الكتاب يذهبون بالنثر مذهب الشعراء بالشعر ولكن كاتبنا قد تجاوز مذهب الكتاب الذين يقلدون الشعر والشعراء فى النثر الذى يتجه الى القراء ليس غير ، وسلك هذا المذهب الشعرى بالنثر التمثيلى وبالتمثيل نفسه . وأنت فى غير حاجة الى أن أبين لك الفرق بين النثر الذى يذهب فيه صاحبه مذهب

الشعراء والموسيقيين والذى يتجه الى الناس جميعا ولكنهم يقرأونه متفرقين ويتأثرون به متفرقين وبين النثر الذى يذهب به صاحبه هذا المذهب ويتجه به إلى طبقات من الناس يجمعهم فى مكان واحد، هو الملعب وينتزعهم من الحياة الواقعة معا ويسمو بهم معا الى عالم الشعر والخيال ويتخذ لهذا سبيلا واحدة هى التمثيل . وأظنك توافقنى على أن فى هذا النوع من الاقدام والابتكار جراءة قيمة . ولكن قد رأينا الآثار التى تتركها قراءة هذه القصة فى نفس القراء وكم نحب أن نرى الآثار التى تتركها تمثيل هذه القصة فى نفس النظارة . ولكن أين نحن من هذا وأين هذا منا فى مصر الآن ؟

وأنا أريد ان اعرض عليك منظراً من مناظر هذه القصة لم أختره اختياراً وانما هو كغيره من المناظر التى تستحق كلها أن تترجم وأن تتخذ نموذجا ومثلا لهذا الفن التمثيلى الجديد . وهذا المنظر حوار بين ايزابيل وبين الطائف :

الطائف — أكنت تنتظرينى ؟

إيزبيل — لاتعتذر ! فلو كنت طائفا مثلك لوقفت عند هذا الشفق وعند هذه الاودية، حيث لم أستطع الى الآن أن أحمل الا جسما كثيفاً . اذا لاستوقفتنى الغدران والنبات الملتف وكل مالا أقف عنده الآن ! اذا لما كنت هنا الآن لو أنى أستطيع مثلك ان أطوف بظلى كلما لا أستطيع إلا أن أمسه أو أراه ! اذا لاتخذت لنفسى جسما من الاشياء كما أهوى عصفوراً على الغصن مرة! أو طفلا مرة أخرى! او انحرف مرة ثالثة فأتقمص عوداً مزهرا من النسرين . انما الاحتواء هو القرب الصحيح... ولكنى ألومك لأنك أقبلت هذا المساء وحدك ، وحدك دائما لم تستطع ان تمس احداً من ذويك ولا أن تحمله على صحبتك!

الطائف : لم أستطع .

ايزابيل : لقد فكرنا أمس بعد كل هذا الاخفاق ان اقدر الاشياء على ان يهيجهم، ويؤثر فيهم ، ويوقظ ما يمكن ان يكون اعصاب الطيف ، قد يكون صيحة طويلة ، وشكوى متصلة متشابهة ، تتردد فى طول واتصال . كهذه الصيحة الحقيقية أو التى نحلم بها والتى تصدر عن القطار فتوقظنا احيانا مع الفجر وتردنا الى الاحياء . أو كصيحة السفينة اثناء الليل فى الخلجان، تلك الصيحة التى تبلغ حتى الاسماك الرخوة فى القاع . ابعثت هذه الصيحة ؟ أأنفقت يقظتك فى بعثها ؟

الطائف : نعم!

ايزابيل : انت بنفسك ؟ انت وحدك ؟ ولم تلحق بصوتك شيئا فشيئا ألاف من اصوات تشبهه ..

الطائف : لقد اصطدمت بنوم الموتى .

ايزابيل : اينامون ؟

الطائف : ايكون هذا نوما ؟ لقد تسود فى اكثر الاحيان حيث يجتمعون رعشة، ثم ينساب فيهم نشاط شديد ، حتى ليقد ينبعث منه شىء يشبه الصوت أو انعكاس الضوء فاذا اقبل عليهم الطارقون المحدثون انغمسوا فى اضطراب لذيذ تهدأ له بقية حياتهم يهزهم دائما ترجح الارض الخفيف . ولكن ربما اتصلت جماعتهم كلها ، فكأنها قطعة من الثلج قد غمرها نوم الشتاء فاذا هبط اليها الموتى الوافدون غرقوا فيها مع شعاع يرافقهم ، لان نوم الاحياء شمس وبهجة .

ايزابيل : اكانوا كذلك امس ؟ ايتصل ذلك زمناطويلا ؟

الطائف : قرونا.. ثوانى

إيزابيل : أليس من أمل فى المعونة

الطائف منهم ، لا اظن.

ايزابيل : لا تقل هذا ! ان بين الذين قضوا من حولى من احسست انهم قد ذهبوا الى غير رجعة ومحيت اشخاصهم من كل حياة ومن كل موت . لقد ارسلتهم على العدم كما ارسل الحجر . ولكن بينهم من وجهتهم الى الموت كأنما وجهتهم فى مهمة ، أو كأنما كلفتهم محاولة ، يظهر الموت فيها وكأنه اقصى غايات الثقة . فكان يضطرب حول المقابر جو السفر والاماكن المجهولة . ولم اكن اميل الى ان اودعهم باللفظ بل بالاشارة . وكنت احس اثناء المساء كله كأنهم يبحثون عن اقليم جديد وعن بيئة جديدة . وكانت الشمس مشرقة ، وكنت اراهم هناك ينامون فى شمسهم الجديدة. وكان المطر يسقط وكانوا يتلقون القطرات الاولى من امطار الجحيم. فلن تقنعنى بأن هؤلاء ايضا ينسون أو يسقطون متى انتهوا الى مستقرهم ؟

الطائف : لم يصلوا لم ارهم .

ايزابيل : ولكنك انت نفسك تلقى السلاح ؟ وتكتفى من الامل والرغبة بأن تهيم طائفا فوق مدينة ضئيلة

الطائف : المهمة خطيرة :

ايزابيل : ومع ذلك فها أنت ذا .

الطائف : إن بين الموتى من ينام وكأنه يقظان .

ايزابيل : إن هـذا النـائم المستيقظ يستخفى مع الصبح وما زلت مقيما .

الطائف : لقد جذبتنى . لقد اوقعتنى فى الشراك .

ايزابيل : اى شراك ؟

الطائف : ان عندك لشركا يجذب اليه الموتى .

ايزابيل : وانت ايضا ترانى ساحرة

الطائف : ان سحرك لطبيعى حتى لكأنك قد عرفت فيم يفكر الموتى . فأنت لا تهيئين لهم ذكريات ولا صوراً وانما تهيئين لهم الشعور بانعكاس الصور وأجزاء الضوء قد استقر على زاوية من الموقد، على أنف هر ، أو على ورقة كانهـا الحطام الضئيل يطفو على الطوفان ..... اترينى مصيبا ؟

ايزابيل : واذا ؟

الطائف : واذا فكل غرفتك فى الظاهر غرفة للاحياء، لفتاة حية من أهل الاقاليم، ولكن من يحقق فيها النظر يرى أن كل شىء قد قدر لتكون هذه العلامة من الضوء على الاشياء المألوفة على إناء من الصينى أو مقبض من المقابض قد استبقى دائما بالشمس أو النار فى النهار ، وبالمصباح أو القمر فى الليل. هذه هى حبالتك وقد كان حقا على ان احتاط حين رأيتك فى نافذتك ذات مساء . لم يكن وجهك المشرق هو الخطر . ولكنى رأيت انعكاس اللهب على الحاجز أمام الموقد . ورأيت ضوء القمر على المنبه . ورأيت ماس الظلال . فأخذت !

ايزابيل : اخذك الشرك فمن أبقاك ؟

الطائف : صوتك قبل كل شىء احاديث صوتك هذه التى تجعل فى الشفق كل مساء شيئاً تهيم به الظلا يشبه مايرى الناس ان الطير تحبه من الشمس! وابقانى بنوع خاص هذه الثقة الكريمة التى تمنعك حتى من ان تفكرى فى انى قد خدعتك وأنى حى ثم تطلق النار فيهوى الطيف!

طه حسين

انظر مجلة باريس الصادرة فى ١ مارس و١٥ مارس سنة ١٩٣٣

قرأت بعد كتابة هذا الفصل حديثاً للكاتب الفرنسى المعروف فرنسوا برشيه نشرته النوفيل ليتريز فى عددها الاخير ، ويسرنى أنى قد اتفقت مع الكاتب الفرنسى فى كثير من الاراء، وان ألفت الذين يقرأون الفرنسية الى هذا الحديث القيم

من الادب الانجليزى

للشاعر شـــــلى

هجاج العالم

حدثينى أيتها النجمة ذات الأجنحة النورانية !
أيتها الروح التى تسبح فى أفقها الوهاج
فى أى كهوف الليل وأغواره أخفيت كيانك

* * *

وحدثنى أنت أيها القمر .. يا كوكب الليل الأصفر الحزين
أيها الرحالة التائه فى طريق لامعلم فيه ولا هاد
فى أى أعماق الليل أو النهار تلتمس مأواك ؟؟

* * *

وأنت أيتها الريح المتعبة الكليلة
التى تجوب الوجود مولولة كالطريد المنبوذ من العالم
أو مازلت تبحثين عن عشك الشجرى فى عذبات الصفصاف والكافور ؟؟

أغنية

هو طائر حزين جلس يبكى إلفا له قد مات
لقد استوى فى ذروة غصن من أغصان الشتاء
وكانت الريح المقرورة تزحف فوقه
والجدول المتجمد يدب تحته

* * *

لم تكن ثمة ورقة خضراء تخفق فى الغابة العارية الجرداء
ولا زهرة ترف فوق الربوة الشاحبة الكئيبة
وكان الجو صامتاً زامتاً
إلا من أزيز الأرجاء البعيدة

الى القمر

خبرنى أيها القمر عن سر اصفرارك ؟
أمن التعب الذى تلاقيه وأنت تتسلق السماء جاهدا محملقا إلى الأرض بين رفاق من النجوم تفاوتت أعمارها ؟؟
خبرنى لماذا لايبدو عليك تغير ما، كأنك عين حزينة لاتجد فى العالم مايثير انتباهها ؟ ؟

محمد عبد المعطى الهمشرى